تبقى دولة . ولعزتهم وإبائهم لا يخضع أمير منهم لامير والعرب جميعهم أمراء وهذا سبب التخاذل والتقاتل بينهم وتقوية الاجانب عليهم . فلو فطنوا لتعاهدوا وتعاونوا وكانت لهم قدرة بمبايعة عمر لابي بكر ، ولا كان لروم بعد الترك شر خلف لشر سلف ، لقي أبو جعفر المنصور اعرابياً فقال له : يا اعرابي ! احمد الله الذي رفع الطاعون عنكم بولايتنا ، فقال له الاعرابي : ان الله أعدل من ان يجمع علينا خسفاً وسوء كيلة ، فلا يجمع بين ولايتكم والطاعون ، هذا ما يقوله كل عربي لفرنسيس والانكليز بعد رحيل النكبة وحلولهم . فليعلم العرب ان حياة الامة بقوتها الادبية وان لا قوة الا بالاتحاد الوليد بن عبد الله بن طعمة

التطور السياسي والديني والاجتماعي بمصر

لا ينتقل شعب من طور الى طور أعلى منه أو أدنى الا بسير اليه مقدر في الواقع ونفس الامر تقديرا تكون فيه المسببات بقدر الاسباب ، وسواء كان ذلك السير بتأثير حوادث الزمان وتقلب شؤون الاجتماع التي لا يشعر جمهور الشعب بها ولا يفطن لما يترتب عليها من العواقب النافعة أو الضارة ، وإما يشعر أفراد منه ببعض احداث التغير في الاعمال والعادات فيحمدها الناس ويذمها آخرون ، ولا يصل نظر الحامد ولا الذام الى ما سيكون من مستقرها في مستقبل الايام — أو كان السير بنظام وضوع لغرض مقصود وقاد من الزعماء ألفوا الجمعيات وحزبوا الاحزاب ، ونقحوا أنظمة التربية وبرامج التعليم — أو كان مذبذبا بين هذا وذاك

أما الحال الاولى فهي حال تطور الشعوب الجاهلة التي ليس فيها زعماء حكماء يقودونها في سيرها على علم بسنن الكون وشؤون الاجتماع ، بل ينتقل اليها تغير الآراء وتجدد الافكار والانظار من شعوب أخرى على سبيل الاتفاق أو على سبيل القصد من تلك الشعوب ، كما هو شأن الشعوب القوية المستعمرة مع الشعوب الضعيفة التي تطمع هي في بلادها فانها تتعمد احداث التغير في عقائدها وآرائها وعاداتها بالقدر الذي تحل به روابطها الاجتماعية وتفسد عليها مقوماتها ومشخصاتها القومية ، فتصبح متقاطعة على نفسها ، ويجد الطامع فيها ما يطلب من الاعوان له عليها آنا بعد آن .

قال المورد سالسبوري ان مدارس المبشرين أول خطوة من خطوات الاستعمار فهي تحدث في البلاد التي تنشأ فيها انقساما وتفريقا بين أهلها يفقدون به وحدتهم

فيكونون عونا للمستعمر على أنفسهم — أو ماهذا مؤداه — وجاء في الجزء الكبير الذي خصصته مجلة [العالم الاسلامي] الفرنسية في مبحث «فتح العالم الاسلامي»[1] ان المدارس التي أنشأها المبشرون في الآستانة وغيرها من البلاد السنية قد كان تأثيرها في حل المسألة الشرقية أعظم من عمل جميع سفراء الدول ومعتمديهم السياسيين[1]

وأما الحال الثانية فهي حال الشعوب العلمية الراقية ذات الزعماء الحكماء الذين يعرفون أمراض الاجتماع وعلله، فيداوون أمراضه ويصلحون خلله، ويكملون نقصه بما يهديهم اليه العلم بسنن الله في خلقه، فيزداد كمالا أو يعجزون عن ذلك فيعود الى الضعف والفساد

وأما الحال الثالثة فهي حال الشعوب المتحضرة بمشابهتها للجاهلة الساذجة من وجه وللعلمية من وجه آخر، وهي الشعوب الضعيفة ذات العلم التقليدي الناقص كأهل البلاد التي بثت فيها تعاليمهم وآراءهم فتبعتها تقاليدهم وعاداتهم فتفرق أهلها شيعا وأحزابا مختلفة متدابرة يعد كل منها الآخر ضارا للبلاد ومفسدا لاهلها، وتكون فيها زعماء بالتكلف والتحزب يعملون للكسب والشهرة لا للمصلحة العامة بل يجاهدون من هم أولى بالزعامة وأقدر على النهوض بالامر منهم الى ان يغلب فريق منهم الآخر باستمالة الرأي العام اليه.

ليس المقام مقام بيان شؤون كل شعب من هذه الشعوب على التفصيل وانما المراد من هذه المقدمة تذكير القارئ بأن مانعنيه بالتطور هو انتقال الامة من طور الى طور انما يكون بسير اجتماعي منه ماهو صناعي كالذي يكون بسعي زعماء الامم الراقية، ومنه ماهو طبيعي ظاهر لبعض أهل البصيرة والعلم، أو خفي لا يعلم به الا بعد ظهور أثره كتفجر الينابيع بعد تجمع الماء بالسريان في باطن الارض، أو بين الجلي والخفي كسير الظل

ثم ان سير السنن الاجتماعية الذي يكون به التطور قد يكون بطيئا لا ينتهي الى غايته الا في عدة أجيال، وقد يكون سريعا مما يحدث في العالم من كبار احداث الاجتماع، كظهور الاسلام في العرب الاميين، الذي أحدث أكبر انقلاب اجتماعي في جميع العالم القديم فكان له ذلك الاثر العظيم في آسية وأفريقية وأوربة باحياء موات العلم ودارس الحضارة، وكالثورة الفرنسية التي زلزلت ما كانت عليه دول أوربة من الاستبداد والاستعباد، وكالحرب العامة الاخيرة التي زلزلت جميع الامم والشعوب أشد زلزال، ومخضت

(١) هو جزء ظهر تموز سنة ١٩١١م ونشرت ترجمة المقالة في المنار بعنوان «الغارة على العالم الاسلامي» فليراجع المجلد ١٥ سنة ١٣٣٠هـ من المنار

العالم البشري محضا لم يتم تكوين زبده الى الآن وجميع الامم والشعوب شاخصة الابصار متلمة لاعناق . مصيخة الاسماع ترتقب النتيجة التي يجتهد أولوا الاطماع المتداعون على افتراس الشعوب الضعيفة كتداعي الجياع الى القصاع في جعلها شر بلاء أصيب به البشر ، بعد أن ملأوا الارض صياحا بأنهم ما حاربوا الا لتحرير البشر

كانت مصر مستقلة استقلالا داخليا تاما تحت سيادة الدولة العثمانية — التي لم يكن لها أدنى تدخل في ادارة مصر الداخلية — وكانت أوربة كلها مصدقة على هذا الاستقلال وأهلها في البلاد معتمدون سياسيون ، وكان الاحتلال الانكليزي الذي وقع بطلب أمير البلاد ورضاء الدولة صاحبة السيادة موقتا لم ينازع في استقلال البلاد ولا في سيادة الدولة عليها ووعدت الدولة وعودا رسمية كثيرة بأنه لابد من الجلاء عنها وتركها لاهلها ، ولكنها في أثناء الحرب أعلنت الحماية عليها ، وجعلتها ميدانا حربيا وأباحت لسلطتها العسكرية أن تتصرف فيها تصرف المالك ، فلما عقدت الهدنة هب المصريون المطالبة باعتراف انكلترة وسائر الدول — التي تعقد الصلح بين الامم — لها بالاستقلال التام وتألف وفد منها للسعي الى ذلك اختار سعد باشا زغلول الشهير بصدق الوطنية والشجاعة الادبية وقوة العارضة وسعة المعارف في القوانين رئيساً له وأخذ الوفد وثائق كثيرة من الالوف من المصريين الذين يمثلون الرأي العام المصري باستنابته عنهم كاعضاء الجمعية التشريعية ومجالس المديريات والبلديات وسائر طبقات الاهالي ، وطفق يخاطب بذلك الحكومة البريطانية والرئيس ولسون وسائر الدول بواسطة وكلائها السياسيين ثم عقد الوفد اجتماعاً عاماً في دار وكيله حمد باشا الباسل خطب فيه الرئيس والوكيل وغيرهم في بيان حقيقة المسألة المصرية وما تطلبه البلاد من الاعتراف لها بالاستقلال ، وأراد الرئيس عقد اجتماع آخر في داره فمنعته السلطة العسكرية البريطانية من ذلك ثم اعتقلته مع الوكيل المذكور وعضوين آخرين من أعضاء الوفد هما محمد باشا محمود صالحان واسماعيل صدقي باشا وأرسلتهم الى مالطة فهاجت الامة المصرية لذلك هياجا وقامت بمظاهرات عظيمة في القاهرة والاسكندرية وغيرهما من المدائن ، وهاج الفلاحون وقبائل العربان وقطعوا أسلاك البرق وقلعوا خطوط حديد السكك ودمروا بعض محطاتها حتى صار الهياج ثورة عامة ، واستقالت وزارة حسين رشدي باشا احتجاجاً على مصادرة

الحرية الشخصية بنفي من ذكر من أعضاء الوفد وتعذر على السلطة تأليف وزارة جديدة.

وكان حسين رشدي قد طلب قبل ذلك كله من الحكومة الانكليزية الاذن له ولعدلي باشا وزير المعارف بالسفر الى انكلترة لمفاوضة أولي الامر فيها عما سيكون عليه شكل الحكومة المصرية بعد الحرب التي عاونت البلاد المصرية وحكومتها فيها السلطة البريطانية أعظم معاونة شملت زهاء مليون شاب مصري ساعدت السلطة الانكليزية العسكرية على الاعمال الحربية في فلسطين حتى انها كانت تسمى الحملة التي فتحت القدس الشريف « الحملة المصرية » وهذا الفتح هو الذي قال فيه المستر لويد جورج رئيس الوزارة الانكليزية انه آخر حرب صليبية . وساعدتها كذلك في العراق وفي مواضع أخرى وناهيك بالمنافع المالية بانواعها . ولكن الحكومة الانكليزية أرجأت طلب الوزيرين أولا ثم أرادت أن يسافرا فأبيا الا أن تأذن للوفد المصري بالسفر أيضا فصدر الامر من لندن بالاذن لهما ولمن شاء من المصريين ومنهم الاربعة المعتقلون في مالطة

فلما ظفر المصريون بالاذن لوفدهم بالسفر نظموا مظاهرات أخرى اشترك فيها جميع طبقات الاهالي حتى النساء المخدرات فكن يطفن بسياراتهن ومركباتهن المزينات بالاعلام والرياحين ويهتفن مع الهاتفين : لتحي مصر ، ليحي الاستقلال التام ، ليحي سعد باشا زغلول ، ليحي أعضاء الوفد المصري الخ

وقد حاولت السلطة العسكرية البريطانية منع المظاهرات الاولى والاخيرة فلم تفلح حتى انها أطلقت رصاص البنادق والمدافع لارهابهم مرارا كثيرة على المتظاهرين فلم يثنهم ذلك عن تكرار المظاهرات بل منهم من قاوموا الجنود وقتلوا منهم كثيرين، ولكن من قتلهم الجنود أكثر بأضعاف وقد قدرت السلطة من قتل في الشوارع بزهاء الف نسمة منهم الكبير والصغير . وليس غرضنا من هذه الخلاصة تحرير تاريخ هذه الحوادث ولا وصفها وصفا شعريا لاجل التأثير وانما غرضنا ان نجعلها مقدمة لما هو متصل بالذات لما ترتب عليها من التطور الديني باتفاق المسلمين والقبط وجعل الجامع الازهر معهد السياسة الاكبر في مصر والتطور الاجتماعي بدخول النساء في المظاهرات السياسية والقائهن الخطب في الشوارع والاسواق فهذا أهم ما يعني به المنار